علي بدور



الإستعمار مرض السيادة القومية

دراسات في القومية العربية 96



الإستعمار مرض السيادة القومية

علي بدور

يهمني بادئ ذي بدء، أن أحدد مضمون الحديث عن مرض السيادة القومية ـ وهو الاستعمار ـ من الزاويا التالية:

١ ـ المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة ـ كشعب وقضية ـ من جراء تسلط الاستعمار عليها.

٢ ـ والعناصر الأخرى التي تحول دون نهضة العروبة من القيود التي قيدها الاستعمار بها.

٣ ـ وكذلك النتائج التي تمخضت عن هذا القيد الاستعماري حتى أضحت جزءاً من وجوده البغيض بالذات.

٤ ـ بالإضافة إلى مظاهر هذا الاستعمار الذي يخل بسيادتنا القومية.

٥ ـ والطرق العملية الكفيلة بالتخلص منه للحاق بركب البشرية المتطورة نحو عالم أفضل.

ـ ١ ـ

لا أحسب قصة الاستعمار قصة جديدة جاءت بفصولها ومآسيها مع مطلع الحضارة الحديثة يوم تم اكتشاف أمريكا... وفتح الهند، والسيطرة على البحار باكتشاف رأس الرجاء الصالح، بل هي قصة قديمة... قدم الحياة نفسها، وهي تحدثنا بأن الاستعمار ـ من الناحية النظرية ـ يكمن في هذه الفتوحات التي عملت لها الأمم قديماً وحديثاً... وفي التسلط والقهر وحب الفتوح، الذي أورث البشرية منذ بداية تاريخها ولا يزال، صنوفاً من الارهاق والظلم، تكبدها الإنسان بروح سامية وعزيمة ومراس، ولا يزال

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٦، العدد ٥ (أيار/مايو ١٩٥٨)، ص ٣٨ ـ ٤٤.



يتكبدها حتى الآن في أكثر بقاع المعمور. ولا أكون مغالياً إذا قلت إن العروبة ـ كشعب وقضية ـ قد ذاقت من صنوف الاستعمار، خلال الألف سنة الماضية، ما لم تذقه قومية أخرى في التاريخ. فالتتر والمغول الذين جاؤوا من الشرق، والأتراك من الشمال، والصليبيون من الغرب، ولا يزالون، إنما أورثوا الشعب العربي عقدة العقد تلك التي سببت له الضعف وهزال الروح، وانسحاق القيم، مما ليس له نظير في الحياة قاطبة.

إن هولاكو عندما أحرق بغداد... والصليبيين عندما احتلوا بيت المقدس... والعثمانيين عندما شملوا بفتوحاتهم الوطن العربي كله... والحرب العالمية الأولى التي خلعت عن العروبة، غل الأتراك، وألبستهم أغلال السادة الحلفاء، هذه التطورات كلها، والحوادث كلها، تحكي قصة الأهوال التي عانتها العروبة، ولا تزال في ذاكرتها، صورة بغداد المحترقة، وخزائن الكتب تلقى في دجلة، وألوف السفن تملأ الشواطئ العربية، والجحافل التركية التي كانت تطرق بعنف وقسوة أبواب القرى والمدن في الشرق العربي، من بغداد إلى دمشق... إلى القاهرة... وحتى المغرب، والجزيرة العربية، واشتراك العرب في الحرب الأولى، كثائرين، ومجازاتهم جزاء سنمار بعد الحرب... ومآسي القضية العربية منذ الحرب الأولى وحتى الآن، هذه الصور الرهيبة من التطور المرير والحياة القاسية، هي الملاحم النضالية... البطولية حتى حد الأسطورة، تلك الأسطورة المتفاعلة حوادثها بالحياة حتى الأعماق، الثابتة رغم الخطوب، المتفائلة رغم حريق بغداد، وألوف السفن الصليبية، وجحافل الغزو التركية وضيافة الحلفاء (!) وبقاء تسلط الدول المستعمرة كالعلق على الجرح النازف.

يكاد الاستعمار في حقيقته الماثلة اليوم لا يعبر إلا عن صورة من صور اختناق الحضارة الفرنسية. هذه الحضارة التي انبعثت منذ عصر النهضة ولا تزال حتى الآن تتطور، وتتطور معها شتى فعالياتها الخيرة وفعالياتها الشريرة. فهي إن استطاعت أن تصنع الإنسان السوبرمان، في العاطفة والشعور والفكر، إلا أنها جعلت من مجموع البشر، عصابات، همها، التعدي وخرق القانون وسلب الآمنين أموالهم وأرزاقهم. وإذا كان لنا الآن أن نستعرض المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة ـ كشعب وقضية ـ من جراء تسلط الاستعمار عليها، فإننا نود أن نحدد ما نقصد بالمؤثرات المختلفة أولاً.

ليس ممكناً أن تعيش الشعوب في عزلة. هكذا شأنها قديماً، وحديثاً، وفي المستقبل، بل هي تعمد إلى الاستفادة دائماً، من جهود بعضها بعضاً. فهذا العامل الياباني الذي يعمل في اعداد الصحون، والآخر الهولندي الذي يصنع لنا مصابيح فيليبس، والعربي الكادح في آبار النفط، إنهم جميعاً نماذج لها طابع التعميم الذي يتخذ صفة الشمول الدائم، عن التعاون بين الشعوب، وتطور هذا التعاون على مدى الأيام. أما النتاج الفكري، فإنه قوة دافعة نحو التطور وذخيرة من ذخائر البعث الحي، ذلك الذي يبعث دفء الحياة في أوصال الحضارات فلا تتجمد أو تتحجر. وخير الحضارات ما ماشت فروع الإنتاج ـ الصناعية والزراعية والتجارية ـ جنباً إلى جنب مع نتاج الفكر.

عندئذ تجد الحضارات ما يبرر وجودها ـ لعطائها التطوري ونزوعها الإنساني السليم ـ فتتأصل جذورها في حياة المجتمع والناس، ويكون لها الغلبة السلمية في مضمار المباراة القائمة على الأخذ بالأجود واجتناب الرديء.

ضمن هذا الإطار الخلاب لرقي الحضارات يصح القول بأن هذه حضارة إنسان مثالي، وحضارة مجموع متحضر، ابتداء من إنسان الغابة وحتى إنسان العصر الحديث. ولكن أكثر الحضارات لم يكن شأنها وهي تتطور، شأن هذه الحضارات التي يزدهر فيها الفكر إلى جانب العمل، وحيث يزدهر الفرد، خلقاً وخلقاً، إلى جانب ازدهار المجموع خلقاً وخلقاً أيضاً. إذ إن هذه الحضارات ـ والحضارة الغربية بوجه خاص ـ كانت على الرغم من ازدهار الحياة العامة، فإنها كانت أشبه ببناء شامخ يقام على دعامات رخوة، سرعان ما ينهار على رؤوس مشيديه. وهي إن استطاعت الانعتاق من أغلال العصور الوسطى، ودك قصور الاقطاع، واطلاق الألسنة بالتعبير عن الحرية والعدالة والمساواة وفتح الأشرعة لارتياد مجاهل البحار والقارات في العلماء والخبراء والمبشرين والجيوش، وصقلها الإنسان الأوروبي ـ وليد هذه الحضارة الجبارة ـ وجعله أقرب ما يكون إلى آلهة اليونان الأولين، شبيهاً في فكره وعاطفته وطموحه وخياله ونضارة حسه، إلا أنها وقد أيقظت فيه غريزة الصراع، جعلت منه ذرة في صحراء المجموع، تلك التي يقتلها الظمأ إلى العدل وإلى الحق وإلى الخير وإلى الجمال. وباتت هذه الحضارة، والفرد في كنفها ملاك، إنما الملائكة في حال اجتماعهم، يؤلفون عصابة من الشياطين قد استيقظوا على صياح الديكة، فاستأنفوا مسيرهم في مختلف الاتجاهات، من ثغور ايطاليا وانكلترا وفرنسا، وهولندا متجهين نحو الشرق قريبه وبعيده عند مطلع الشمس، معتقدين أن هذه البحار كلها والأراضي كلها وما عليها من شعوب وما فيها من خيرات وأرزاق، إنما هي مسخرة لخدمتهم وطاعتهم وأضحت أوروبا بفضل حضارتها أشبه بالإله الأسطوري الباحث عن رعية تعبده، وتؤمن به... وتسبح بحمده بكرة وعشيا.

يقف عامل تقدير الإنسان لأخيه الإنسان على قدميه، إذا انهارت كل العوامل الحضارية الأخرى. فالحضارة خلق وإبداع وصقل لغريزة الإنسان الأولى وتهذيبه، والسمو بمداركه وحسه إلى سوية البشر السوي. وقد تقف العلوم والفنون والاختراعات ومواكب المعرفة، وعظمة الفتوح في مضمار الكشف العلمي كأدلة بارزة على النهضة الراسخة، ولكن هذه المقومات الحضارية اللماعة، يجب أن تهدف إلى ارشاد الإنسان وتزويده بالروح التي لا تجعل منه تجاه أخيه الإنسان ـ سواء أكان من بني قومه أو من الأبعدين ـ مجرد قطعة تتحرك، يحترق في جوفها الغذاء، وتنتشر في الشرايين والأوردة، دماء حارة فتية، فتنطلق الحواس الخمس من عقالها ولا شيء بعد هذا كله. ذلك أن الحضارة جناحا طائر، أحدهما مفتوح على العش الذي يأوي إليه ـ صغر أم كبر ـ والآخر، إنما هو مفتوح على العالم أجمع. ولا قوام لحياة نبيلة بدون هذين الاتجاهين. وكما ينظر المواطن إلى زميله المواطن فيساعده ويحترمه ويشاركه أفراحه وهمومه، كذلك تفعل الأمم الأغنى نحو الأفقر منها، والأكثر علماً نحو الأقل علماً منها... والمتحضرة مع المتأخرة في سلم

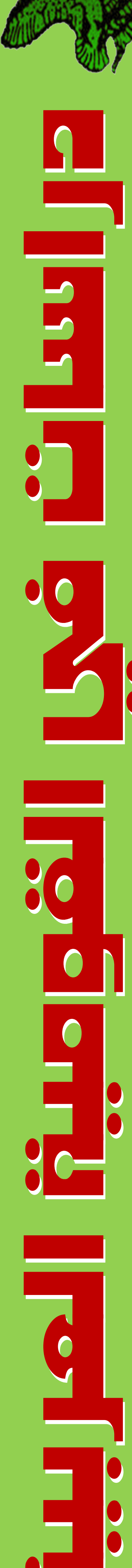
الرقي أو المدنية، مدفوعة بأهداف سامية، لأن الإنسان كفرد يجب أن يكون هو الإنسان كمجموع: في نظرته إلى الحضارة وإلى استخدامه هذه الحضارة لبناء مضمون حي لحياة إنسانية فاضلة.

فماذا فعلت أوروبا... بالعرب كشعب... وبالعروبة كقضية... بعد هذا كله؟!!

إنها فعلت الكثير: حاولت حضارتها أن تجعل من الإنسان العربي شبه إله، بتثقيفه، والرقي بعواطفه وحسه إلى مرتبة القديسين. ولكنها عزلته عن مجموع شعبه الذي نبت منه. وما هذه العزلة الفكرية التي يحياها الجمهور المثقف من شعبنا العربي، سوى رجع الصدى لتلك الأساليب الحضارية التي تؤمن بإمكان عزل الإنسان عن واقعه وبيئته وقضايا شعبه، بالمزيد من العلم والمزيد من التحضر، والمزيد من الابتسام في حفلات الكوكتيل. وأماتت في هذا الإنسان المثقف روح الجماعة، وبعثت فيه غريزة البقاء المفردة. وعاد تفكير المثقفين ومنحى الثقافة بعامة، تعزيزاً لكرامة الفرد، مع قهر لكرامة الأمة التي ينتمي إليها، وبعثاً لصفحات السمو الإنساني مع تسجيل وقح لإعدام البشر غير المتحضرين بوسائل ليست مشروعة. وإذا كان قرن ونصف قد مضيا على هدير مدافع نابليون حول الأهرام أو سبعة قرون ونيف، على الحملة الصليبية على بيت المقدس، فإن مدافع نابليون لا تزال تهدر.. والسفن لا تزال تحمل السموم من جديد لتدمير قوميتنا الناشئة وعرقلة تطورنا نحو حياة أفضل، وعزة مرهوبة الكيان. ولعل العروبة كقضية لم يضعفها شيء قدر ما أضعفها الحرب والغزو... وعشرات الأعلام الأجنبية تخفق في سمائها الزرقاء الصافية من المحيط إلى الخليج.

ومع توالي الغزو، وإعادة المذابح، بين الآن والآخر، تولدت في الذات العربية، عقدة الخوف من الغد، وعقدة الركون إلى جانب القوي للحماية، والإيمان المريض بأن ركب العروبة قد فات، وما حيلتنا وعدتنا مع معركة البعث معروفة، إلى جانب قنابل الذرة والهيدروجين والصواريخ عابرة القارات، والأقمار الاصطناعية.. وهذه المعاهدات التي تعقد مع الدول الكبرى هي خير دلالة على عقدة الخوف من الغد والركون إلى جانب الدول القوية للشعور بفضيلة الحماية من أخطار موهومة أولها الغزو الشيوعي.. وآخرها الغزو الشيوعي. ولم تقتصر العقد على عقدة الخوف، وعقدة فقدان الثقة بالنفس، بل أضيفت إلى القائمة الحقيرة، أسماء أخرى، بعضها التآمر على الشعب وعلى حقوقه الأساسية في الحرية والسيادة والتعبير عن الرأي. ونشأ بين ظهرانينا حبل طويل شد به مئات العبيد الذين تربعوا على كراسي الحكم.. وكانوا عوناً للأجنبي على بني وطنهم... بالرصاص تارة، والسجون تارة... والنفي والابعاد إذا نفد الرصاص، واكتظت السجون بالأحرار!

وكان أن انتهى العرب بعد قرن ونصف منذ هدرت مدافع نابليون حول الأهرام، إلى أن تخوض العروبة كقضية، ثورة الجزائر العارمة، فضلاً عن عدة ثورات تحريرية





تخوضها العروبة في عمان والمحميات، وأكثر الأقطار العربية الأخرى، حيث الحرب سجال بين الاستعمار ـ وقد وقف في صفه العبيد والخونة ـ وبين الشعب العربي الذي يهدف من حربه الصريحة هذه إلى طرد الاستعمار... وفي اثره طغمة العبيد، أولئك الذين يريدون أن يقدموا الوطن العربي والشعب العربي، هدية لسادتهم، جزاء حماية هؤلاء السادة إياهم وتمكينهم من الحكم بشتى الأساليب والمغريات.

حيال ذلك الإلحاح في الضعف... والإلحاح في بث بذور الثقافة الحديثة، مجردة من حياة الأمة وواقعها، وتصوير هذا الواقع، تصويراً صادقاً، لدراسة علله وأمراضه، ووصف الدواء الناجع لهذه الأمراض والعلل، حتى أنجبت هذه الثقافة الحديثة، جمهرة من المثقفين، يقودون خلفهم بعض السذج البسطاء، والذين لا حول لهم ولا طول، في اتجاهات مختلفة: بعضهم يؤمن أن العروبة يجب أن تنحو نحو الغرب وإقامة مجتمع عربي على النمط الغربي، ديمقراطية... وأحزاب... وشركات... وصحافة حرة... وتكافؤ الفرص بين المواطنين. وفئة أخرى تدعو العروبة لأن تتجه نحو الشرق، للإيمان بالشيوعية كمنقذ، وبالاتحاد السوفياتي كنصير، مدعين لذلك بأن العالم يتطور ككل... والحضارة تتطور ككل... ولا معدى للعروبة عن اللحاق بركب التطور، وهناك اليوم عالم قديم ينهار هو عالم الرأسمالية، وعالم جديد يشرق فجره، هو عالم الاشتراكية. وهناك فئة ثالثة، أنشأ روادها أحزاباً تدعو إلى العروبة بمعزل عن الشرق والغرب، ولكن هذه الأحزاب التي تدعو إلى العروبة الصرفة، لا تستطيع في الواقع أن تكتسح أولئك الذين يدعون إلى ربط العروبة بالغرب... أو أولئك الذين يدعون إلى ربطها بالشرق... وكذلك لا تستطيع أن تقدم للشعب العربي، مادة حية للنضال ضد هذين الاتجاهين المتطرفين بالذات.

تجاه مثل هذه الفوضى القيادية، كان الحلفاء ييسرون لأنفسهم أنصاراً من العرب في حربين عالميتين وإن كان من المشكوك فيه أن يتيسر لهم في أية حرب مقبلة، مثل ما يتيسر لهم منذ مطلع هذا القرن... وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم، ما دمنا نرى حولنا على الأرض العربية، قواعد تشاد... ومطارات تمهد... وجيوشاً أجنبية تعسكر وتنتظر... وحكومات رجعية تصلي للاستعمار كل يوم خمس مرات... وتكفر بنعمة أمتها وقوميتها، إرضاء لشيطان المال والجاه، ما أمرها الاستعمار بالكفر... وأوصاها بالإلحاد!!

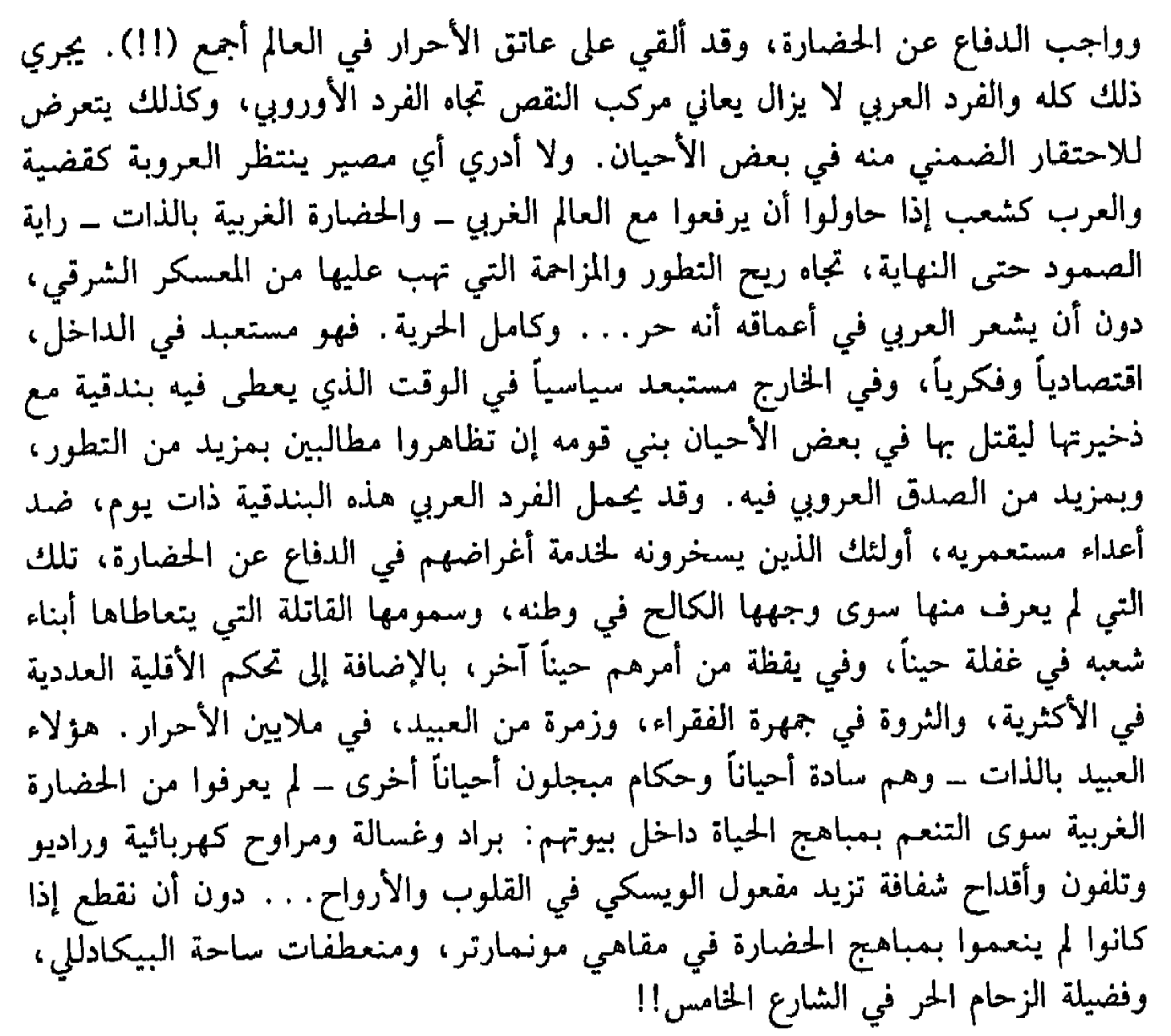
ـ ٢ ـ

التطور في حياة الأمم، أشبه بالملح الذي لا بد منه لكل طعام. وأمة لا تتطور، أمة تموت لا محالة. والتطور قد يأخذ منازع مختلفة. ذلك أن المشارب التي يستقي منها الشعب العربي مادة تطوره، إنما هي ذات صلة بالكيفية التي يوفر بها الشعب وسائل معيشته اليومية ونمط النظام الذي ييسر له هذا الهواء الجديد الذي يهب وسط زحام



التيارات في حياة أضحى كل ما فيها نذيراً بغبار جديد من تيارات التطور. ذلك أن التطور في الأساس متصل بالملاحظة إذا خلت ذاكرة الشعب من صور العلم المقروءة. وقد تقترن الملاحظة بالاكتساب المباشر إذا كانت الملاحظة تستطيع أن تتوزع بين حاضر ماثل، ومستقبل مشرق منير. وتطور الشعب العربي ـ بغض النظر عن عوامل التجزئة وتفاوت التطور من قطر إلى آخر ـ إنما يتم بصورة عفوية، وأحياناً ما يتم بصورة معكوسة يقصد منها خدمة مصالح استعمارية. فلا يتطلع هذا الشعب الراغب في التطور إلا على قشور الحضارة الغربية أو على سمومها بوجه خاص. هب أن شاباً يدعي الاطلاع على الحضارة الغربية ـ كما أدخل في روعه ـ لأنه زار أوروبا، وأمضى أكثر أيامه ولياليه، في مونمارتر بباريس، أو ساحة البيكاديللي في لندن وما تزخر به منعطفاتها، حتى إذا زار نيويورك استقر في الشارع الخامس!! ولكن أن نرى هؤلاء الأقوياء كيف يعيشون في بلادهم... كيف يحيا العامل؟ ما هي حقوقه وما هي واجباته؟ كيف ينظم الشعب شؤونه ويصر على المطالبة بحقوقه؟.. وما هي المسؤوليات التي يتحملها رجال المال والأعمال تجاه الامتيازات الممنوحة لهم؟.. حتى إذا انعكست كل هذه الصور في خيال إنسان يريد التطور بحق... وجد نفسه مسوقاً رغماً عنه للانخراط في جمعية منعزلة عن واقع الحياة وواقع المجتمع بسبب ثقافتها المنعزلة عن الحياة والمجتمع، دون أن يقسر نفسه كشاب مثقف، كإنسان، لأن يغادر مدينته ذات يوم، إلى الريف المحيط بمدينته، يرى محراث حمورابي دون أن يرى تشريعه!! والحضارة الغربية ـ بغض النظر عما فيها من أشياء مفيدة شرط تجريدها من جنسية مصدرها ـ تعتبر أجوبة استعمارية ربطت خيوط الدمى التي تتحرك في الشرق العربي بمراكزها الأصيلة في لندن وباريس ونيويورك وغيرها من العواصم الكبيرة ـ وأضحى المواطن العربي إذا حلم بحياة رافهة، تمنى لو عاش في باريس أو لندن أو نيويورك أو غيرها من العواصم الكبيرة... وإذا عز عليه إتيان المثال الطيب عن قوم شرفاء صادقين وعن شعب مرفه، قوي، ذكر الانكليز أو الألمان أو الروس أو الأمريكان. أما وطنه، أما شعبه، أما تاريخه، أما واجبه حيال هذه الحياة التي يحياها هو مع بني قومه، إذ تشده إليهم مئات الأواصر، فهذه جوانب لا يتطلبها إلا كل مخبول أو طامح في خيال ما دام يعتقد أننا ضعفاء لأن غيرنا قوي، وأننا فقراء لأنهم أغنياء، وأننا جهلة لأنهم متعلمون، وأنهم يحبون ويواصلون الحياة، ونحن نموت ثم نعيد الموت من جديد، وإن هذه الحياة الدنيا لهم... ولكن الحياة الثانية مضمونة لنا وحدنا!!

على أن الفوضى لم تقف عند هذا الحد: حد الاكتساب الحضاري الحر... وحد وضع الأمثولة في نفوسنا لعالم سعيد قوي لا يمكن أن يتراجع قط، يعيش في أوروبا... في الوقت الذي تكاد حياتنا لا تساوي فيه شيئاً... بل إننا انسقنا في هذا الخضم من جديد وبحماسة، إذ بعد أن كنا ننساق فرادى في هذه الطريق المميتة، وكان الاكتساب المباشر فردياً أيضاً، أضحينا اليوم نعيش وسط محاولات ناجحة إلى حد ما، تبذل لإدخال جزء كبير من العالم العربي في نطاق الاستعمار الغربي، باسم وحدة المصير



وواجب الدفاع عن الحضارة، وقد ألقي على عاتق الأحرار في العالم أجمع (!!). يجري ذلك كله والفرد العربي لا يزال يعاني مركب النقص تجاه الفرد الأوروبي، وكذلك يتعرض للاحتقار الضمني منه في بعض الأحيان. ولا أدري أي مصير ينتظر العروبة كقضية والعرب كشعب إذا حاولوا أن يرفعوا مع العالم الغربي ـ والحضارة الغربية بالذات ـ راية الصمود حتى النهاية، تجاه ريح التطور والمزاحمة التي تهب عليها من المعسكر الشرقي، دون أن يشعر العربي في أعماقه أنه حر... وكامل الحرية. فهو مستعبد في الداخل، اقتصادياً وفكرياً، وفي الخارج مستبعد سياسياً في الوقت الذي يعطى فيه بندقية مع ذخيرتها ليقتل بها في بعض الأحيان بني قومه إن تظاهروا مطالبين بمزيد من التطور، وبمزيد من الصدق العروبي فيه. وقد يحمل الفرد العربي هذه البندقية ذات يوم، ضد أعداء مستعمريه، أولئك الذين يسخرونه لخدمة أغراضهم في الدفاع عن الحضارة، تلك التي لم يعرف منها سوى وجهها الكالح في وطنه، وسمومها القاتلة التي يتعاطاها أبناء شعبه في غفلة حيناً، وفي يقظة من أمرهم حيناً آخر، بالإضافة إلى تحكم الأقلية العددية في الأكثرية، والثروة في جمهرة الفقراء، وزمرة من العبيد، في ملايين الأحرار. هؤلاء العبيد بالذات ـ وهم سادة أحياناً وحكام مبجلون أحياناً أخرى ـ لم يعرفوا من الحضارة الغربية سوى التنعم بمباهج الحياة داخل بيوتهم: براد وغسالة ومراوح كهربائية وراديو وتلفون وأقداح شفافة تزيد مفعول الويسكي في القلوب والأرواح... دون أن نقطع إذا كانوا لم ينعموا بمباهج الحضارة في مقاهي مونمارتر، ومنعطفات ساحة البيكادللي، وفضيلة الزحام الحر في الشارع الخامس!!

ـ ٣ ـ

شملت الحضارة الغربية التي انتقلت إلى العالم العربي، فيما شملت، الطريقة التي يحياها الغرب في بلاده. هذا الشكل الذي نتخذه في القمة، أساساً للحكم لدينا، يخلو من عنصر الإفادة ما دام يفتقر إلى مضمونه، إذ تربط هذه الحضارة جوهر الشخصية العربية بمؤثرات ومنبهات لا تمت إلى واقع العروبة كقضية، أو العرب كشعب، مدفوعة، بعوامل عديدة، منها إدامة أشكالها ومضامينها الهادفة إلى الاستمرار في الرفاه... والسيطرة... على حساب قضايانا العربية، ومقومات شخصيتنا العربية الأصيلة البناءة.

واليوم، نحصد، انقلاباً في المفاهيم، وما تولده هذه المفاهيم المقلوبة من مثبطات لروحية الأجيال العربية الصاعدة. فقد صرفتنا الحضارة عن جوهر الحياة ـ وهو الإنسان ـ ومعدن فضائله وسمت خلقه الأصيل وتصرفه الحر، إلى العناية بالمظاهر والقشور. فخالد بن الوليد البطل ليس شيئاً ما دام يحارب على ظهر الحصان ويقاتل بالسيف. وطارق بن زياد ليس شيئاً ما دام أسطوله قد خلا من السفن المسيرة بالذرة والصواريخ عابرة القارات. والسمر العربي ليس شيئاً تجاه حفلات الروك أند رول الصاخبة. حتى أولئك الذين لا يزالون بالزي الشعبي ما برحوا يلاحقون بالاحتقار من بعض من دخلوا البنطال في هذه الأيام. وباتت الحضارة: بنايات ضخمة وسيارات فخمة، ولكنة تدور في اللسان



مع اللبان، ومعدة يجب أن تملأ ثروة، وجاها، ودسائس القصور، ضد القصور، ولا شيء بعد ذلك. أما أن تكون لنا وسيلتنا الخاصة في فهم الحياة مجردة من هدير المحركات وأزير الرصاص وعويل عربات المترو، أما أن يكون لنا نظرة تجاه الإنسان الذي يحيا هذه الحياة مناضلاً ذائداً عن وجوده، مبرهناً عن جدارته بهذه الحياة، وبالصدارة فيها، أما أن يكون لنا في ماضينا نبراس خالد نعتز به، فنذكر خالد بن الوليد لا نابليون، والغزالي لا كانت، والمعري، لا شكسبير، وصلاح الدين لا فريدريك... فهذا من الخيال الذي نحلم به ونعيد، دون أن نحصل على مزيد.

إننا لسنا ضد الثقافة ولا ضد الاكتساب ولا ضد فتح النوافذ العريضة لتدخل الحضارات مجردة من ثيابها... لأننا نؤمن بالحقيقة المجردة، ونحترمها، وندافع عن وجودها، بوجودنا كله، ونؤمن بطلب العلم للعلم. أما أن يكون الأمر أن الحضارات تدخل بثيابها فحسب، أن يكون التعصب ـ والعلم والمعرفة لا يعرفان التعصب ـ لإنسان بعينه مجرداً، من خاصية هذا التعصب، لأبناء هذه الحضارة أو تلك، وأن يكون الوقوف على فضائل هذا العبقري، والتعصب لها، هو الغاية من الثقافة وهو المبرر الوحيد لنهل مواردها، فهذا ما نحاربه، وما لا نقبل به، لأننا نؤمن أننا شعب له تاريخه وحاضره، وله مستقبله على هدى هذا الحاضر وذاك الماضي، دون أن نقف عن الاكتساب من الحضارات كلها... والثقافات كلها، فلا نفقد بذلك، جوهر شخصيتنا، فنفقد مبررات وجودنا.

ولقد تعرض العرب فيما تعرضوا له، منذ مطلع هذا القرن، وبعد الحرب العالمية الأولى بخاصة، لبعث حضارات من قبورها، نتيجة لحمى البحث عن حضارات الإنسان التاريخ في هذه البقعة من العالم. فإذا مصر فرعونية، ولبنان فينيقي والعراق آشوري. وإذا المغرب العربي كله، فرنسي بعضه ـ كما يُدعى اليوم بفرنسة الجزائر ـ وبربري بعضه وما تبقى فإسلام ينطقون العربية دون أن يكتبوا بها. وتأصلت هذه الخطوط التي أسميت حدوداً، كما تتأصل السلسلة إذا قيدت بها الأقدام، مما أقام في داخلها دولاً وحكومات... وأقام خارجها، نظرات الطمع والاستيلاء يؤججها الاستعمار ضد هذه الأقطار العربية وفيما بين بعضها بعضاً. وإذا الدول الاستعمارية التي توزعت العالم العربي فيما بينها، ممثلة في الجيوش والشركات، تسعى جاهدة لتؤصل هذه الحدود، فلا تنهار، وتقيم تلك الحضارات المحنطة، فإذا هي تسعى، وإذا بها تلقى منها التشجيع والمدد، سراً وعلانية، حتى إذا أتت الحرب العالمية الثانية وخرج العالم منها منتصراً على الشر، تبين العالم العربي أنه مسوق إلى حتفه إن لم ينزع هذه القيود، فسيكون النير جزءاً من الرقبة، والقيد جزءاً من الأقدام. فحاول أن يقر هذه الحضارات التي تشبه تماثيل الشموع الخالية من الروح... وباتت العروبة بين نارين: نار الاستعمار وزبانيته... ونار الذين آمنوا بالحضارة الغربية ـ والاستعمار عصارتها الحتمية ـ وقيمها، وأنكروا كل صلة لهم بشعبهم وبتاريخ هذا الشعب، فانهزموا من ساحة المعركة النضالية التي يتأجج اليوم نارها، متطلبة منا جميعاً، كل عون مادي أو أدبي.



والاستعمار لا يأتي من الخارج فحسب، بل إنه ينبع من الداخل أيضاً، لأننا لا نستطيع أن نقنع بتحرر وسيادة أي قطر عربي، إذا لم تتفتح حياة الشعب فيه على أوسع نطاق، ولم يوجه شعبه لاكتساب المزيد من أسباب التطور التي تهب ريحها من أربعة أطراف المعمور. وعندما تقتصر وسائط المواصلات على الحمير والبغال والجمال، وتقتصر الثقافة على قراءة بعض الكتب الدينية، وتقتصر التجارة والصناعة والزراعة على وسائل قديمة، بل لعلها نماذج أولى لنشوء الحضارة البدائية... وعندما يقتصر سلاح الشعب على سيوف من خشب، تقوده وتوجهه وتحكمه، وعندما يخلو البلد كله من مدرسة... ومن مستشفى، وتحول المدارس التي كانت فيه إلى قصور، والمستشفيات إلى سجون، فإننا نقف ـ بسبب ذلك كله ـ حيال أعلى أنواع الاستعمار: استعمار يغل العقول والأفكار والنفوس، فلا تنطلق لتؤدي واجبها حيال العروبة في هذا الجزء المعزول عن العالم كافة. ذلك أن التفريط في الخوف من الاستعمار يؤدي إلى استعمار مماثل. وإلا أتكون الحياة هكذا، بحيث تعاش بلا هواء جديد، وبلا تجربة جديدة، لتصاب الشعوب بالعقم الذي لا تبرأ منه إلا بمرور عدة أجيال تكون هي الضحية الصامتة؟

والعروبة، وقد أصيبت من الاستعمار الغازي، بالكثير، قد أصيبت أيضاً من الاستعمار المنبعث من داخلها من فوضى القيادات، وفوضى السلطان، وتآزر هذه القيادات فيما بينها، فلا تنهار القصور المشيدة على الرمال، لتنهار معها الرؤوس الفارغة التي تحكم الملايين، بالأدعية والتعاويذ، غير مصغية إلى نصيحة أو مشورة، جاعلة من النفوس النبيلة والجباه السمراء، محطاً لأقسى أنواع العذاب والتشريد والنفي والإبعاد عن الأوطان.

على أن المنطق السليم، لا يلهينا دائماً عن الشذوذ الذي تحفل به القاعدة. فكما أن الاستعمار الخارجي، عدو للقومية العربية، للشعب العربي، فكذلك الاستعمار الداخلي ينبغي اعتباره كالاستعمار الخارجي سواء بسواء، بل إن الجريمة تغدو أكثر خطراً، تجاه تعطيل الملايين من أبناء الشعب العربي، فلا تكون ملاذاً ونصيراً لمن ابتلوا بالاستعمار الحقيقي في فلسطين والجزائر وعُمان، وكل أرض عربية لا تزال تشكو من رجس الغاصبين.

ـ ٤ ـ

إن الاستعمار في العالم العربي يتجلى في مظهرين: الأول، اسرائيل، والثاني، الأحلاف التي تفرضها الدول الاستعمارية على العالم العربي، والرجعية التي تقبل هذه الأحلاف آملة أن تزيد من أمد بقائها في الحكم... وإبقاء الرجعية في كل شيء كمظهر للاستعمار الداخلي.

فإسرائيل تمثل في الحقيقة كل الأخطار التي يمكن أن يتصورها المرء عندما يريد أن يدقق في هذا الكيان الذي خلقه الاستعمار وسط عالمنا العربي. إن إسرائيل ليست نزعة



دينية بقدر ما هي فكرة اقتصادية، وليست أداة للعدوان بقدر ما هي خطر محدق بكافة دول المنطقة في كل آن. وهي أداة طيعة في يد جماعة الأحلاف يؤدبون بها من لم يتأدب بعد، ويشهرونها سيفاً مجرداً من قرابه في معركة تطويع الشعب العربي لخدمة الحضارة المنهارة، والدول التي لا تزال تحلم ببعث امبراطوريات القرون الوسطى، وتوطيد الامبراطورية الاقتصادية الأولى، في القرن العشرين: امبراطورية المال وأسهم الشركات ومناجم الذهب والفضة وآبار البترول، وتسخر ملايين العبيد في برامجها الهادفة إلى الاستيلاء على العالم أجمع، وإسرائيل ممثلة هذه الامبراطورية في الشرق العربي.

وإذا كانت ضحايا إقامة إسرائيل حتى الآن لا تتعدى مليون لاجئ مشرد، عدا ألوف الملايين من الليرات، قيمة أملاكهم وأرزاقهم وما ترصده الدول العربية على التسلح احتساباً لعدوان اسرائيل عليها، فإن الخطر لا يزال في بدايته، وإذا لم تسد هذه الثغرة، فإن ثغرات أخرى سوف تفتح، ولا يسد هذه الثغرة شيء مثل الإصلاح في الداخل مع التسلح والاستعداد للحرب في الخارج. وها هو الاستعمار اليوم ـ وقد هالته الانتفاضة بعد النكبة ـ يسعى جاهداً لكبح جماح هذه الانتفاضة، وكذلك لإدخال أكبر عدد من الدول العربية في أحلافه بحجة الخطر الشيوعي، في الوقت الذي لا يزال يحاربنا فيه، في عُمان وفي المحميات، وفي فلسطين وفي الجزائر، فكيف ستغدو حالنا إذا انخرطنا جميعاً في أحلافه... وتسلم زمام أمرنا، نفر من عبيده الأذلين؟ أيبقى أمل في انتصار ثورة الجزائر وفي عودة اللاجئين إلى ديارهم بعد طرد العصابات منها وتحرر العرب من ربقة النير الثقيل، وتخلص العروبة من تيارات المذاهب المتجلية اليوم؟ أم اننا سنغدو أشلاء، قد نسلم على ما تحتنا من أرض وما فوقنا من سماء وقد لا نسلم؟

والمعركة مع الاستعمار تبدو مزدوجة. وهي في الحقيقة كذلك. ذلك أن وجهها الأول عربي بحت، يتجلى في بعث القوى الدفينة وتنظيمها وإطلاقها من جديد للوقوف في وجه اسرائيل كخطر مباشر. والوجه الثاني وجه الاستعمار البغيض الذي تضافرت جهوده مع جهود أذنابه في الداخل، لتشتيت هذه الجهود وبعثرتها والحيلولة دونها ودون إتيانها بأي بادرة تدل على سير في الطريق المستقيمة المؤدية إلى تجاوب فيما بين العناصر المشتركة في عملية الخلق الجديد التي تمر بها العروبة للقضاء على إسرائيل وسد الثغرة التي إن بقيت هكذا، مفتوحة كما هي اليوم، فإن الخرق سوف يتسع، وسوف تغمر سياسة الأحلاف، هذا العالم العربي كله، ما دام عدوان إسرائيل على كل دولة عربية متحررة من أبسط الأمور، وما عدوان اسرائيل على سوريا، لأكثر من مرة، وكذلك عدوانها لأكثر من مرة، على مصر، عن الأذهان ببعيد.

وقصة اسرائيل، ليست القصة الوحيدة التي يكتبها الاستعمار على صفحة أرضنا الطيبة. ذلك أنه في داخله، يكتب القصص المفزعة الأخرى، حتى إنه انساق وراء أحلامه في الفتح والغلبة إبان الحرب الأولى، فحارب ألمانيا ـ وهي أيضاً دولة استعمارية ـ وحليفتها في المشرق، وهي أيضاً استعمارية لأنها تقوم على العنصرية،

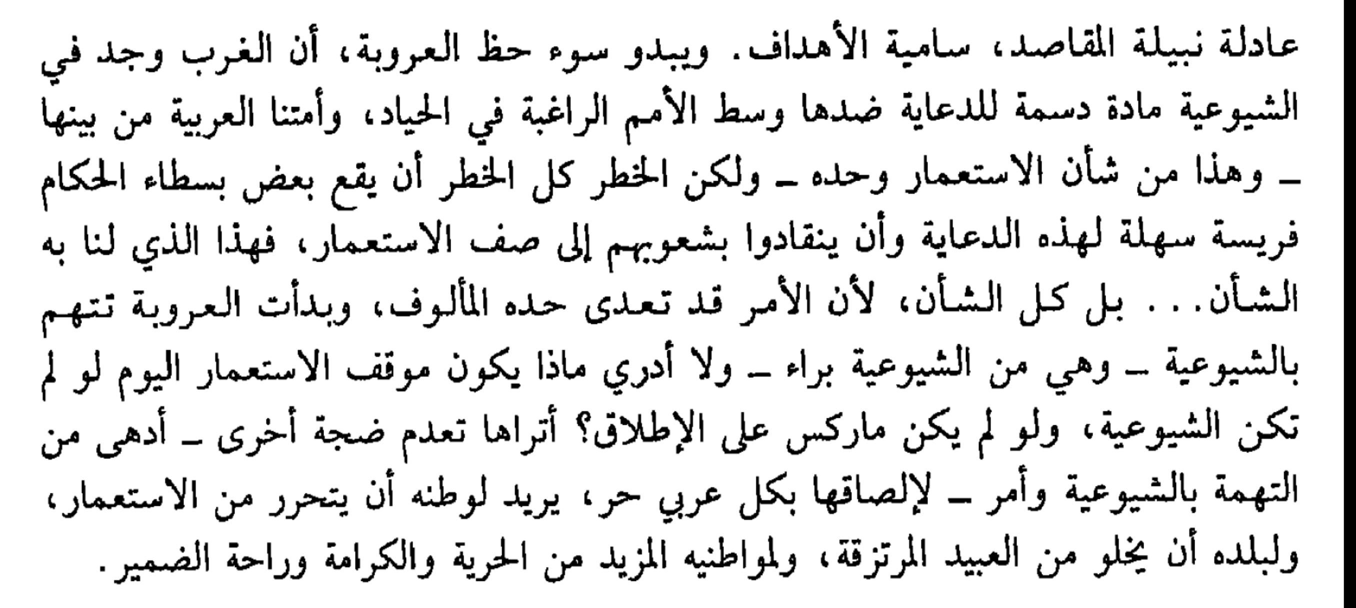


وتشجيع الاستعمار الداخلي الممثل في إحياء الرجعية ومدها بالقوة لتبقى على نفوذها وهيكل بقائها المتداعي. فالحرب الأولى ـ وكان من أسبابها ولادة إسرائيل ـ بوحي وعد بلفور ـ إنما كانت مظهراً من مظاهر تخبط الحضارة الغربية التي تختنق اليوم بأوسع معاني الاختناق، أكان اقتصادياً أو روحياً، أو فكرياً. ذلك أن حضارة تعتبر الحرب وسيلة من وسائل بقائها، كالحرب الداخلية ـ بين ممثلي هذه الحضارة ـ والحرب الخارجية ضد بقية العالم، لهي حضارة سوف تنهار من داخلها بحروبها الداخلية، أو من خارجها بانتفاضة الشعوب المغلوبة على أمرها، عليها، وهذا ما نشهده الآن، حيث نرى انتفاضات الشعوب في قارتي آسيا وافريقيا، وفي أمريكا الجنوبية، على هذه الحضارة الغربية، من حيث تنظيمها للعلاقات بين الأفراد، والشعوب، وهي كلما تحاربت فيما بينها، استطاعت بعض الشعوب أن تتخلص من القبضة الاستعمارية. ولعل الشعوب التي لم تتحرر بعد، برغم مضي حربين عالميتين، فإن الأمل جد قوي، بانتصار هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ـ والشعب العربي في طليعتها ـ دون حرب ثالثة، نظراً لتساند قوى السلم في العالم أجمع مع الشعوب الراغبة في الحرية والاستقلال.

فالحرب والفتح، عنصر ملازم لبقاء هذه الحضارة. هذه الحضارة التي لا تجد حرجاً في إفناء الهنود الحمر بأمريكا، والقبائل الاسترالية، والشعب العربي في الجزائر، وفي أكثر البقاع التي وطئتها قدم الإنسان الأبيض في آسيا وافريقيا، طاردة منها سكانها الأصليين إلى داخل الغابات تفترس الوحوش مرة، وتفترسها الوحوش مرة، فتنقرض هي والوحوش معاً، ذات يوم.

هذه هي قوام النظرة إلى الآخرين، والغرباء منهم بصورة خاصة، التي تدعو إليها الحضارة الغربية لتبرر بقاءها مدفوعة بعوامل استعمارية بحتة. هذا ما جعل مأساة مليون لاجئ عربي، مأساة مفتعلة في نظر الرأي العام الأوروبي، فهضمها ضميره اللاأخلاقي، ولم تهزه حتى أعماقه، لينتصر للمشردين العرب، وكذلك لم تهزه حرب السويس البشعة، وكانت قد ألهبته مبادرة روسيا لإخماد ثورة المجر، جاعلاً من أولئك شهداء... ومن ملايين العرب الثائرين ضد الظلم والاستعمار الأوروبي، جماعة من العصاة الثائرين على الحضارة التي رفعتهم إلى مصاف البشر السوي!!

أما الأحلاف ومن يساندها في العالم العربي، فهي المظهر الثاني من المظاهر المخلة بسيادتنا القومية بالذات. ذلك أن الأحلاف والذين يدعون إليها، هي جزء من كل، شامل متكامل، لخطة رهيبة من خطط الاستعمار الجهنمية. ولا أدري إذا كان من حسن حظ العرب كشعب، والعروبة كقضية، أن تنتصر الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ أم أنه من سوء حظهما على التحقيق؟ ويبدو حسن الحظ في أن العرب اليوم يستفيدون من التوازن القائم بين المعسكرين فيتأرجحون على حبل الاستعمار ما وسعهم التأرجح، إلى أن يقطعوه، لا ليصبحوا غربيين من جديد، أو شرقيين ففي ذلك هلاكهم المحقق، ولكن ليبرزوا من خلال الأنقاض والملايين المشردة، وقسوة المظالم، شعباً طموحاً، وقضية



عادلة نبيلة المقاصد، سامية الأهداف. ويبدو سوء حظ العروبة، أن الغرب وجد في الشيوعية مادة دسمة للدعاية ضدها وسط الأمم الراغبة في الحياد، وأمتنا العربية من بينها ـ وهذا من شأن الاستعمار وحده ـ ولكن الخطر كل الخطر أن يقع بعض بسطاء الحكام فريسة سهلة لهذه الدعاية وأن ينقادوا بشعوبهم إلى صف الاستعمار، فهذا الذي لنا به الشأن... بل كل الشأن، لأن الأمر قد تعدى حده المألوف، وبدأت العروبة تتهم بالشيوعية ــ وهي من الشيوعية براء ــ ولا أدري ماذا يكون موقف الاستعمار اليوم لو لم تكن الشيوعية، ولو لم يكن ماركس على الإطلاق؟ أتراها تعدم ضجة أخرى ـ أدهى من التهمة بالشيوعية وأمر ــ لإلصاقها بكل عربي حر، يريد لوطنه أن يتحرر من الاستعمار، ولبلده أن يخلو من العبيد المرتزقة، ولمواطنيه المزيد من الحرية والكرامة وراحة الضمير.

على أن الأمر في الواقع، ليس تخميناً. فالتطور لا بد منه، والبشرية سائرة إلى الأمام، وليس من عقبة تستطيع أن توقف سيرها الملح. وكل ما هنالك أن الشعوب تريد أن تتحرر... وتريد أن تتطور، والاستعمار وقد هيأ إسرائيل خارج حدود الدول العربية، قد هيأ أيضاً أحلافه المنظورة وغير المنظورة، فأشعل النار داخل العالم العربي، وسلط العربي على العربي، وسلط الحاكم على المحكوم، وسلط السادة العبيد على الأحرار المستعبَدين. وجلس يرقب نتيجة المعركة التي يخوضها الشعب العربي من المحيط إلى الخليج ضد الاستعمار... ضد اسرائيل كدولة قائمة في قلب العالم العربي... وضد ما يمكن أن تستطيعه اسرائيل في المستقبل... وضد الأحلاف الرامية إلى السيطرة على منبع القوة والصفاء والخلق القويم في الشخصية العربية ليحول دونها ودون ما يمكن أن تعده ضد اسرائيل كمظهر من مظاهر الاستعمار الخارجي الجاثم على صدر العالم العربي... وضد ما تعده هذه الأحلاف الاستعمارية بحجة محاربة الشيوعية في داخل العالم العربي... وفي خارجه لمحاربة الاتحاد السوفياتي، بوقيد من العالم العربي، مستعينة باستجابة بعض المغرمين بالحكم... وأعداء التطور... وحماية الرجعية وتزويدها بأكثر عناصر البقاء.

والشعب العربي إذا كان يقاوم اليوم الاستعمار بمظاهره المتعددة الخارجية والداخلية منها، فإنه مدعو لإثبات وجوده الحي في معركة البعث الخالدة التي يخوضها ضد كافة ما تركه الاستعمار على أرضنا الطيبة من عقد النقص والخوف من الغد، كأمة وكحضارة... وكاتجاه حضاري، وسط هذا الصخب الذي يعلو ولا يزال... وضد العناية بقشور الحضارات وترك لبابها... وضد إذابتنا في بوتقة الامبراطورية الاقتصادية الجديدة، كخدم وعبيد... وضد حرب الإبادة التي نتعرض لها في فلسطين، والجزائر وعُمان، وعلى كل أرض عربية... ضد الامتيازات التي سرقها الاستعمار في غفلة عن عين الشعب التي استيقظت اليوم ولن تنام أبداً... وضد كل المعاهدات التي توطد للاستعمار قدماً، وللخونة قدماً، وضد كل ما تعده طبقة العبيد والرجعية لإيقاف عجلة التطور عن السير مهما اعترضها من صعاب.

تقف العروبة اليوم على قدميها: ثورة في الجزائر. ثورة في عُمان. إرهاص بالثورة في كل أرض عربية يقيدها الاستعمار بغل وضع مفتاحه في أيدي حفنة من عبيده وخدمة الأذلين. وتبدو معركة الشعب العربي معركة مستمرة لا نهاية لها بالنصر المؤزر الذي يضع حداً لعبث الاستعمار بسيادته القومية، وعزته الوطنية، وأمجاد تاريخه النبيل.

ولعل البارز في معركة العروبة مع الاستعمار أنها حركة واضحة. فالمحاربون في صف العروبة معروفون، حيث الشعب العربي من المحيط إلى الخليج وقيادة عربية تحررية تؤمن بالحياد بين المعسكرين، وتسعى للسلام في العالم أجمع. والمحاربون ضد العروبة معروفون أيضاً، حيث الاستعمار كفكرة استغلال واستعباد، وإسرائيل كسيف مسلط على الرؤوس، وطبقة رجعية من الخونة والأذناب وتجار السياسة وبعض أصنام الحكم. وتبدو وسيلة الحرب بارزة صورة ومضموناً. أما الصورة فتتجلى في هذه الأساليب من الديمقراطية الكاذبة التي تمرس بها كثير من الخونة والأذناب ولصوص الحكم ومن خلفهم الاستعمار. أما المضمون، فوجود هذه الطبقة بالذات من الخونة التي ربطت مصلحتها بمصلحة الاستعمار، ضد الشيوعية ـ والعروبة، كقضية، من الشيوعية براء، لأن طريق تحرر العروبة إلى الآن لم يصطدم لا بالشيوعية ولا بالاتحاد السوفياتي. وكذلك وجود هذا الاستعمار المتمثل في شركاته النهمة النهابة، وجيوشه المعسكرة على الأرض العربية، والمعاهدات التي يحترمها جانب واحد، وكل الحلقات الاستعمارية المسماة أحلافاً تبغي الحفاظ على الحضارة والعالم الحر وإسرائيل!! وأيضاً، وجود إسرائيل كفكرة عملية من جانب الاستعمار، تجسدت في شعب طريد، وجرح لا يزال ينزف حتى الآن وعلق لا يزال يرتوي من هذا الجرح النازف. وأيضاً ثم أيضاً، وجود كل من يدعو إلى محاربة الاستعمار بمزيد من الديمقراطية علاوة على مظاهر الديمقراطية المريضة التي يتخبط الشعب العربي من جرائها في البؤس والاستغلال حتى الآن ولا يزال.

أما وقد وضح المعسكران: معسكر العروبة، ومعسكر الاستعمار، فإن طريق الخلاص أضحت هي أيضاً معروفة وليس لنا الآن إلا أن نسردها ببساطة وهدوء.

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة. ونحن اليوم في عام ١٩٥٨. وفي هذه السنوات القليلة استطاعت الثورة أن تحرر مصر داخلياً من الرجعية ومن أذناب وعملاء الاستعمار، واستطاعت الانتصار على الاستعمار وعلى أحلاف الاستعمار، واستطاعت أن تخوض معركة التحرر والوحدة بعزم وحزم لا سبيل إلى وصفهما. وحطمت على جدار بورسعيد الفولاذي أعتى عدوان تعرض له شعب حر في التاريخ. فمن أين جاءت الثورة بكل هذه الفضائل؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من سرد الحكاية من أولها.

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة. نحن اليوم في عام ١٩٥٨. ولعل الصدق لم يتجل كما هو في تاريخ هذه الثورة منها في تاريخ أية ثورة مماثلة. كانت ثورة مصر

تؤمن بالواقع كما هو إيماناً مجرداً من العاطفة. وتؤمن بالفكرة التي تحملها لإصلاح هذا الواقع إيماناً مجرداً من العاطفة أيضاً. وتؤمن بوسيلتها التي انتهجتها في تطبيق هذا الإصلاح تطبيقاً مجرداً من العاطفة أيضاً، وأيضاً.

وجدت الثورة أن مصر تزخر بالأحزاب، وأكثر الأحزاب ظاهرة مرضية في المجتمع العربي. هذه الأحزاب لا تمثل اتجاهات جذرية ولا تعبر عن محتويات اجتماعية لجمهور الشعب العربي في مصر، بل هي تتكون من طينة واحدة، طينة الطبقة التي تمتلك الأرض وتمتلك الصناعة وتحتكر التجارة، وتمتلك الشركات والمشاريع ومن يحف بها من عبيد وخدم. هذه الطبقة قد تملك كل الثروة في مصر... ولكنها من حيث العدد لا تمثل خمسة في المئة من مجموع الشعب العربي في مصر. طبقة ليس لها من رصيد شعبي سوى رصيدها في بنك مصر... وبنوك العالم الحر قاطبة!!

هذه الأحزاب ـ كما وجدتها الثورة ـ أشبه بشركات تصنع الغزل في معاملها العديدة. من مصلحة كبار المساهمين، أن يتزاحموا على السوق ـ الحكم ـ وأن يغروا بالمستهلك ـ المواطن ـ فإذا كونوا فيما بينهم كارتل أو تروست ـ ائتلاف قومي أو دمج حزبي ـ فمعنى ذلك أن كبار المساهمين زعماء الأحزاب ـ قد اتحدوا ضد صغار المساهمين ـ جمهور الأحزاب ـ وضد المستهلكين ـ الشعب بأسره ـ. وإن شركة ـ حزباً ـ أو شركات ـ أحزاباً ـ هذا شأنها لجديرة بأن تحل كما فعلت الثورة في مصر... لإعادة تركيب العناصر الإيجابية والقيادية للمجتمع من جديد.

في مثل هذا الجو الفاسد، الطافح بالخيانة والرشوة، وشراء الضمائر، والتزلف لذوي السلطان، كانت القضية المصرية ـ كجزء من القضية العربية مع الاستعمار ـ تخسر الشوط في كل مرة كان الرأي العام العربي يصفق لها إيذاناً بفوزها... وكان الخسران بسبب بسيط هو أن الوكيل كان يتفق مع الخصم ضد الموكل، فلما أغلقت الثورة الباب إلى الأبد على هذه الأحزاب، أو تلك الشركات إن أردنا الدقة في التعبير، تحرر المستهلك، ونشط المساهم الصغير، وحفظت الثورة، الثروة القومية، فلا تطير في مضاربات البورصة أو مضاربات الحكم.

ولقد فقد الاستعمار بحل الأحزاب في مصر معيناً نشيطاً، وهذا ما سيفقده في كل قطر عربي آخر ـ كفى المستعمر مؤونة الكشف عن وجهه طيلة أمد الاحتلال ـ إلا في ثورة ١٩١٩ يوم خرج قياد الثورة من يد القادة إلى يد الشعب ـ ووقفت مصر حكومة وشعباً يداً واحدة ضد المستعمر... ضد جنود الاحتلال في القناة... فاضطر أخيراً ـ كما قال الرئيس جمال عبد الناصر ـ أن يحمل عصاه ويرحل... لأنه ليس من مصلحة له عاجلة أو آجلة لا في مصر ولا في العالم العربي كافة، في أن يشهر سلاحه ويحارب دفاعاً عن بقائه. إنه ذكي نوعاً ما، لقد خسر معركة، فلينسحب إذن... وليعاود الهجوم مرة ثانية على مصر... بواسطة عملائه المنبثين في أكثر الأحزاب القائمة في العالم العربي... وبواسطة نفوذه وسلاحه واسرائيل إذا لزم الأمر... فلما نفدت ذخيرته من



الدس والاستغلال، وفقد أمله في أعوانه داخل مصر وخارجها، جرب الحرب الصريحة... فكان أمرها أن زوي بطلها في جاميكا... وأضحى عبد الناصر زعيم العرب كشعب... وأضحت فلسفة الثورة ـ كطريقة في الإصلاح والحكم ـ فلسفة العروبة كقضية.

ونظرة فاحصة نلقيها على أكثر البلاد العربية... لندرس أحزابها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، نخرج بها بنتائج واضحة، تؤكد أن وضع مصر مشابه للأوضاع في أكثر البلاد العربية، وأحزاب مصر كأحزاب أكثر البلاد العربية... والشركات التي كانت قائمة في مصر، هي ذات الشركات القائمة اليوم في أكثر البلاد العربية... لها نفس الأهداف والمطامع في السيطرة على السوق واستعباد المستهلك!!

إن مصر الثورة قد ضربت المثل الصالح ـ والمثل الصالح قدوة ـ في تحرير نفسها من ربقة هذه الشركات ـ الأحزاب ـ وتخليص الوطن من أنصار الاستعمار المنبثين في مجالس إدارتها، وطردت الاستعمار إلى غير رجعة، وهي تخوض اليوم، معركة التحرير الكبرى على أوسع جبهة ضد الاستعمار عرفها تاريخه، لتعيد الثقة إلى نفوس المواطنين من أبناء الشعب العربي، بقضية وطنهم العربي الكبير، وحقه في السيادة الكاملة والحرية الصحيحة، بعيداً عن تيارات المذاهب المختلفة، وعن أساليب هذه المذاهب في السياسة والحكم، لإقامة كيان عربي أصيل، في ظل راية القومية العربية، كنزوع إنساني، نحو عالم فاضل، حر، سعيد.

منشورات

الطليعة العربية في تونس